قصّة دَرْويش

رضوى محمود - مصر

أثناء ذهابي إلى العمل اعتدتُ أن أَمُرّ يوميًّا أمام محطة قطارٍ تفيض دائما بمختلف الأنواع والألوانِ من البشر، ولكنّ اليوم لفت نظري شيءٌ أكثر اختلافا منهم، أحد زُهّاد الحياة رافضي التعايش .. لا أحب أن أطلق عليهم (مجانين) أو حتّى (مجاذيب) لأنّنا لا نعلم ما مرّ به قبل هذا الرفض البائن لكل ما تقدّمه لهم هذه الدنيا، فكثيرٌ منهم يومًا ما أو ربّما ما يزالون يملكون عقولًا أفضل ممن يملكون أكبر الشهادات ولكن الحياةَ فرصٌ وأحيانا لا تعطي الفرصَ للاحق بها!

لم تكن المرة الأولي التي أرى فيها هذا الزاهد، ولكنّني اليوم اندهشتُ عندما رأيتُه يقرأ أحد الكتب، توقفتُ أمامه وحاولت أن أسرق بنظري اسم الكتاب الذي يقرؤه ولكنه لحقني بنظرة أرعبت قلبي، سرت بعدها مسرعةً في طريقي.

طافت حولي بعدها مشاعر من فضول لم أستطع السيطرة عليها، استمررتُ في متابعة هذا الرجل حوالي أسبوعٍ تقريبًا، أشاهده وهو يقرأ من بعيدٍ ولا أستطيع أن أقترب بعد تلك النظرة، ولكنّ فضولي أطاح بي إلى أبعد من ذلك فقررت أَن أَبحث حول ما أودى به إلى هذا الحال!

كان يوجد أمام محطةِ القطار كُشْكٌ أبتاعُ منه في طريقي، توقَّفْتُ عنده واشتريْتُ عدة أشياء، وأثناء محاسبته سألتُه عن حال هذا الرجل، وهل هو دائمُ القراءةِ هكذا، وهل يؤذي من يتحدّثُ إليه؟

فأجابني: "إنّه منذُ أن جاءَ إلى هذا المكان ويطلقُ عليه أهل الحي (دَرْويش) لما يُكَرِّرُ من جملة {حكمتك كانت ايه يا رب}، وهو لا يؤذي إلّا من يتعدى عليه، وأصحابُ القلوبِ المعطاءة من أهل الحيّ يتولون طعامه وشرابه، وهو لا يتحدّثُ مع أحدٍ منهم، لكنّ بعض الأطفال يضايقونه سواء بالكلام أم بركلِه بالحجارة؛ فيكون فعله مجرد ردة فعلٍ، ودائمًا ما أراه منهمكًا في كتبه والقراءة طوال اليوم.

حديثُ صاحبِ الكُشْك لم يهدئ من وَلَعِ فضولي بل زادَهُ ولعًا؛ وقَرَّرْتُ في اليوم الثاني أن أقترب منه وأنا لا أَدْري ماذا هو بفاعلٍ ولكنّه قال لي أنّه لا يؤذي إلّا من يؤذيه وأنا لا أريد إلا أن أعرف حقيقة وجودِه في هذا المكان بهذا الوضع ..

هل معرفةُ حقيقتِه تعبترُ أذيّة له؟ لا أعلم .. ولكنّني اتخذتُ القرار..

اقتربتُ منه وقلتُ له: "أنا جيبالك معايا أكل وعصير ممكن تقبلهم مني، وكمان عرفت إنّك بتحب القراية فجبتلك من مكتبتي كام كتاب!".

نظر إليّ نفس النظرة التي تخلعُ القلبَ من مكانه ولكنني هذه المرة آزَرْتُ قلبي وأعدتُه إلى صدري، وَصَمَدْنا معًا ضدَّ تلك النظرة؛ خطف من يدي ما كنت أحمله له حتى كدتُ أن أسقط!".

تحدث وقال لي: "إنتي عايزة مِنّي إيه .. بقالك فترة بتحومي حواليا ليه؟".

- "والله أنا مش عايزة منك حاجة ولا هأذيك .. متخافش .. إنت ممكن تاكل وأنا هقعد جنبك هنا أشوفك بتقرى كتب إيه".

- "هنا على الرصيف؟".

- "أيوه، وفيها إيه؟".

جلستُ ووسَط دهشته لمستُ بروحه أنّه قد اطمأنّ لي، كان جائعًا فأخذ يأكل وينظر إليّ وأنا أقلّبُ بين دفاتره لعلّني أجدُ شيئًا يمحو ما أُبهَم أمامي، وجدتُ كتابًا صوفيًا، وآخر لنجيب محفوظ، وأكثرهم كتب جامعية ..

فسألتُه: "هو إنت بتجيب الكُتُب دي منين؟".

- "فيه ساكن في الشارع ده جاب لي زيك كده كام كتاب، والباقي كتبي وأنا في الجامعة".

- "إنت كنت في كلية ايه؟".

- "علوم!".

- "طيب وسِبْت الجامعة ليه؟".

هاج وماج بعد هذا السؤال وكادَ أن يركلني بالحجارة كما يفعل معه الأطفال

- "إنتي بتلفّي وتدوري على إيه .. عايزة تعرفي عنّي إيه؟".

- "لو ممكن أقدر أساعدك في حاجة لو في إمكاني!".

- "أنا مش عايز مساعدة من حدّ .. وخدي كتبك وامشي من هنا!".

- "طيب خلاص اهدأ؛ أنا مش عايزة الكتب خلّيها، وأنا هامشي ولو احتجت حاجة نادي عليّا؛ أنا بَعَدِّي من هنا على طول".

تركتُه وولّى وجهي إلى طريقي، وسرتُ وعقلي ينتفضُ من كثرة الأفكار، ما الذي يجعل شابًّا جامعيًّا كهذا يتركُ العالم ويأتي مصاحبًا كتبَه إلى هنا!؟".

مرّت أيّامٌ ليست بالكثيرة له وليستْ بالقليلةِ لي، كنت أَمُرُّ أمامه وأبتسم حتى أجعلَه يطمئنّ لي مَرَّةً أخرى ولكنّه كان ينظر إلى الأرض كلَّما رآني، ليست كسرةً منه ولكنّه اعتراضٌ على فضولي تجاه حياته الخاصّة..

وبعد أن فقدتُ الأمل، نادى عليّ أثناء مروري يومًا بحُجَّةِ أنَّهُ بحاجةٍ إلى مياه؛ أعطيتُه إياها، وبعد أن ارتوى قال لي:

- "أنا عايز أتكلم مع حدّ وكل اللي هنا شايفني مجنون .. لسّه عايزة تعرفي أنا سبت الجامعة ليه؟".

- "طبعًا، لو عايز تحكي ومش هضايقك!".

وبدء يقصّ عليّ قصته ...

نشأ (عماد) الذي أطلق عليه أهلُ الحيّ (درويش) من أسرة ثريةٍ إلى حدٍّ ما، كان والدُه صاحب أكبر محلات أثاث بالسويس وكان له من الأملاك العديد

من عمائر ومخازن ومحلات، وبجانب كل هذا قسوةُ قلبٍ حادٍّ كالسيف، ووالدته كانت ربةَ منزل طيّبةُ القلب وبالنسبةِ لهُ كانت الطمأنينة والأمان والأُذُن التي لا تملّ يومًا ما مهما ظلّ يحكي، وكان لديه من الإخوة اثنان أكبر منه بسنواتٍ ليست كثيرة.

ماتتْ والدتُه وهو في السنةِ الثانية من الجامعة وحينها رحل معها كلُّ معاني العطف والحنان من حياته، وازدادتْ معاملةُ والدِه قسوةً وأصحبت أكثرَ جفاءً!

وفي ليلةٍ غضبتْ فيه الطبيعة على (عماد)؛ فأرادت له أن لا ينعمَ بشيءٍ في هذه الدنيا، جمع الأب ولديه وأخبرهم أنه يشعر بالمرض، وخوفًا من الشِّجارِ حول أملاكِه؛ سوف يُقَسّمها بينهم في حياته، وقسّم كل ما يملك على أخويه الاثنين ولم يذكر حرفًا من اسم (عماد) بهذه التركة، وعند اعتراضِه على ما فعله والده؛ وقعت عليه الصاعقة التي أنهتْ حياتَه!

أخبره أنه (لقيط) ليس له من الأصل نسب، وجدَته زوجتُه تحتَ بيتهم وبرغم اعتراضه على تربيته بين أولاده وإرادته في أن يضعَه بأحد الملاجئ؛ إلّا أنّ زوجتَه أصرّت على بقائه واعتبرته هديةً من (الله) لها وقالت له: "إنّ (الله) لو أرادَ له الحياةَ بملجأ؛ ما أرسله تحت بيتِنا".

وتربَّى بين أولاده كأخٍ لهم، لا يعلم أحد عن هذا السّرّ شيئًا سواه هو وأمّه، وساعدهم على ذلك أن كبير أبنائهم كان تعدّى السنتين بشهورٍ؛ فلم يدرك أحد منهم من أين جاء ثالث لهم.

أثناء حديث والده، شعر للحظةٍ أنّه لم يخلق بعد وأنّ كلَّ ما مرَّ به كان حلمًا لم يستيقظ منه بعد، أكملَ والده الحديث: "إن إكرامًا للعِشْرة والعمر الذي قضاه بينهم؛ سوف يترك له هذه الشقة يعيش بها بعد وفاته، ولو أراد بيعها يومًا ما؛ يتقاسم الثمن مع أخويه!

هام بعدها على وجهه لا يعرف له قبلة، لَمْلَمَ أوراقه وما استطاع حينها أن يجد من كتبٍ وركب قطار القاهرة، ومن هذا اليوم اتّخذَ من هذه الأرض سكنًا له.

عاد إلى الشارع مثلما أُلقي إليه أوّلَ أيامِه، ظَلَّ يبحثُ عن (حكمة الله) في حياته، لماذا حَمَلَ وِزْرَ غيرِه، لماذا حَطَّمَ الظروف قلبًا كانت له آمالٌ بعد أن استراح في بيتٍ وأُسرةٍ؟ لماذا لم يَمُتْ منذ ولادتِه حتى لا يرى هذا اليوم؟ لَمْ يكن هو من ألقى بذور الشرّ ولكنّه جنى ثمار أبٍ وأُمٍّ أتتْ به إلى هذه الدنيا في غفوةٍ عن الزمن وعن الضمير وعن الأخلاق!؟ ..

سرتُ بعد سماعي لقصته كالمغيّب عقلُها، لا أدري ماذا أفعل ولا أدري كيف أساعده؟! هولا يريد عملًا، ولا يريد مسكنًا، ولا يريد أي شيءٍ من هذه الحياةِ؛ فقد زهدها، كلُّ ما يريدُه هو أن تصعدَ رُوحُه لمخاطبة (الله) –سبحانه-!

أدرك أن لا قيمةَ لهذه الدنيا ما دام يسكنُها شياطينُ الإنس يتعلّم منهم شياطين الجن كيف يتقنون شر الأعمال!

مررتُ بعد يومين؛ فلم أجده فى مكانِه؛ فسألتُ صاحب الكشك عنه، فأجابني أنّهم قد عثروا عليه ليلة أمس ملقى على القضبان ميْتًا وقد سُرقت أعضاؤه!!

رحم (الله) أرواحَنا عاشت زُهدًا في الحياة .. وماتت حبًّا في (حكمةِ الله)!

ارحموا زُهّاد الحياة؛ فأنتم لا تعلمون ما مَرُّوا به!!